نشأة الخط العربي ومراحل تطوّره

الأستاذ محمد الشريفي

(الجزائر)

بسم الله الرحمان الرّحيم

مداخلتي هذه هي في الحقيقة عرض لـلرسالة التي قدّمتها لنيل شهادة دكتوراه الدولة من جامعـة الجزائر في شهر جوان الفارط، تحت عنوان «اللوحات الخطية في الفـنّ العربي المركبة بخط الثلث الجلي». وكسـبا للوقت سأعـرض اللوحات في نفـس الوقت مع هذه المداخلة. إنّ أجـلّ فنّ إسلامي هو الخط العربـي، ويمتاز على سائـر الفـنون بنـشأته فـي حرم كـلام الله العزيـز، فاكتـسب مـنه قدسيّته وارتـقى على سمات معتـبرة من التشكيل الـفنّي ذي قيم جمالـية بنسـب مدروسة، كسـاها الذوق العـربي حدسا شـاعريا وسحرا شرقيا أخاذا.

واللوحة الخطية، موضوع البحث، هي ذات التركيب المرتّب في أشكال هندسية، تنتظم الكلمات على أرضيّتها في اتّزان والحروف في انسجام. إنّ الخطّ السائد في هذا المضمار هو الثلث الجلّي الذي بلغ قمّة الابداع وأعلى مراتب الجمال بقوّته الجبّارة وليونته القهّارة معا، بتوافق واتزان، فحظي بالتحسين والتطوير، وانصبّت القواعد في تحصينه وخُصّ بالأمور الجسام، وركزنا عليه قصد توفيته بعض حقوقه قدر الجهد، تاريخا وتطوّرا. إنّ الهدف الأسمى للوحة الخطّية هو تبليغ رسالة السّماء في الأرض إعلاء لكلمة الله، وعرض المثل العليا على صور وقورة وجميلة وجذّابة لتؤثر في النفوس. وليس فنّ الخط لذات الفنّ، إنّه ناطق بلسانين بلاغي وجمالي فهو يُخاطب العقل بمضمونه، ويناجي الوجدان بجماله وحُسن تنسيقه. وعندما أدرك الفنّان المسلم سرّ الترتيب في حياته وارتاح ذوقه الإنساني إليه، سعى إلى تليين خطوطه، وله في تعاليم كتابه الكريم مناهج، مثل قوله تعالى : ﴿فقولا له قولا ليّنا﴾، وقوله : ﴿وقولوا للنّاس حُسنى﴾. ولا نرى ممّن يصف خطّنا بالزخرفية منقصة وتهمة يتعيّن نفيها، بل هو مدح لإحدى خصائصه المميزة المتعدّدة. والزخرف في حروفنا إبداع وتحسين وتنميق، مثلما ينمّق اللفظ ويُحبّر، وبه ساد على الخطوط الأجنبيّة الجافّة.

شاع تنميق اللوحات المركّبة في أوّل منظومة كما يُمكن وصفها خلال القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر ميلادي، بعد بلوغ رسوم الحروف درجات معتبرة من الجمال الفنّي والتوازن التشكيلي. ولئن عُرف التركيب من قبل في الأفاريز المستطيلة على الجدران والتّحف، فهي لا تجمع كلّ عناصر اللّوحة المحدّدة بحيّز ملموم. تناولنا بالدرس عموما التراكيب المنفّذة بالقلم على الصحائف، حيث أصالة التسطير وسخاء الرّسوم، ولدى الانتهاء من البحث سمّيناه «اللوحات الخطيّة في الفنّ الإسلامي». وحيثما حلّ الإسلام فثمّ الخطّ العربي. وكانت بعض البلاد أوفر حظا في الاهتمام بالخطّ لمركزها في السلطة أو لمكانتها العلمية والثقافيّة. واقتصرنا على المدارس الرّائدة تجنّبا للتكرار، وهي الشّامية والعراقية والمصرية والعثمانية التركية والمغربية. وأملى علينا اختيار الموضوع ومنهجيته إقامة مسابقات ومهرجانات دولية منذ الثمانينات لإحياء فنون الإسلام من خطّ وزخرفة وعمارة، لإفادة المشاركين في مجالهم وساعدتنا عضويتنا في إحدى لجانها على تقديم ما تيسّر من خبرات وتجارب متواضعة.

إنّ المكتسبات الخطيّة وقواعدها صارت حبيسة الرسائل المنسية، ورحيل أئمّة الخط بقدراتهم عرّضها للاندثار، وتضاءل وهج اللوحات الأصيلة، وأهملت مجهودات المبدعين، استهانة

بمكانتهم أو جهلا بفنونهم وطغيان اللوحات الدخيلة. ومن قريب كاد لا يخلو بيت مسلم من آيات بيّنات وحكم وأمثال، فحلّت بدلها صُور وتماثيل غريبة بتناقض صارخ. يستأهل كلّ مبدع من الخطّاطين دراسات خاصّة تقديرا لإنتاجه واسترصادا لنبوغه، وهذا بول كلي (1879 ـ 1940) الرسّام الذي تأثّر بالحرف العربي، صدرت عنه 700 دراسة، وألمانيا بصدد إنشاء متحف لعرض آثاره.

محتوى البحث

صدّرنا البحث بالمصطلحات التي حرص الفنّان العربي على نحتها للحروف في كلّ أوضاعها وأوصاف أجزائها، وجمعناها ووظفناها في الدراسة. وكان القسم الأوّل عن أسس اللوحات، وتحدّثنا عن الكتابة عموما لمعرفة أصولها التي دلّت الأبحاث على شرقيّتها، وثاني المواضيع عن الخط والخطاط للتعرّف على شخصيته بعوامله النفسية والاجتماعية وحتى الجسمية، وتعليم الخط والإجازة ولا بأس بعرض نماذج إجازتي : الأولى من أستاذي سيدي إبراهيم وهي المعروضة، والثانية من أستاذي حامد الآمدي.

والموضوع الثالث كان عن الوراقة العربية ذات الصّلة الوثيقة بتطوير الكتابة التي حفظت التراث العربي. وسجّلنا اهتمام العرب بالكتاب، وكيف كان أبو يعقوب يوسف الخليفة

الموحّدي في الأندلس (على سبيل المثال) يتحدّث عن أرسطو وأفلاطون مع ابن رشد، في زمن كانت طبقة الأشراف في الغرب تتباهى بجهلها الكتابة والقراءة. ويملك الصّاحب بن عبّاد في القرن العاشر الميلادي كتُبا أكثر ممّا كان موجودا منها في جميع دور الكتب الأوروبية مجتمعة. وفي قرطبة كان بالربض الشرقي 160 امرأة كلّهن يكتبن المصاحف.

وكان الفصل الثاني عن آلات الكتابة، عن الأقلام وآداب بريها، والأحبار وصفات تحضيرها، والأوراق ومعالجتها وصقلها، وسائر الأدوات قديمها وحديثها. وخصّصنا الفصل الثالث لدراسة الحروف، صدّرناها بأبنيتها وتكويناتها وفلسفتها وتشريح دقائقها، وحاولنا الغوص في مكامن تركيب الحروف، ونحسب أنّنا لم نُسبق إلى مثل ذلك. وتعرّضنا لسير القلم بسنّيْه وتطوّر تحريفه وإمساكه من جيل لآخر، ثمّ عرضنا حروف الثلث حرفا حرفا، وكتبنا أشكالها في الإفراد والتوسّط والتطرّف، بقواعدها وموازينها وأسمائها، وفصّلنا الصّور المنسجمة مع بعضها البعض في الاتّصال، واستقرأنا مواقع المدّ في الكلمة الثنائية والثلاثية إلى السداسية التي خصّص لها أئمّة الخط قواعدها على نسب جمالية، ويُعتبر المط في الخط كمدّ الصوت في اللحن.

وكان الفصل الرابع عن المُنشئين الثلاثة للخطّ العربي. فقد أسّس ابن مُقلة خطّه على الهندسة والنّسب الجمالية، وحفظ التاريخ رسالة له قدّمنا محتوى خطوطها العامّة. وتلاه ابن البوّاب، فكسا هندسة سابقه بالترتيب الذي زان الخط وحسّنه، وعرضنا خطّ أستاذه ابن أسد للمقارنة. ثمّ جاء دور ياقوت المستعصمي الذي طوّر تحريف الخط فكملت أهمّ مكوّنات الخط.

القسم الثاني هو صميم الموضوع : اللوحات الخطّية، تحدّثنا في البداية عن تاريخها للاطلاع على عادة تعليق اللوحات بدءا من الكعبة المشرّفة والمسجد النبوي وبيت المقدس. وخصّصنا الفصل الأوّل للمدارس العربية أولاها المصرية، وقد تميّزت بخطّاطين ألّفوا رسائل في الخطّ وقواعده. وقمّة هذا الدور ألفية شعبان الأثاري التي نظمها سنة 795، ثمّ عرضنا أعمال أشهر الأساتذة بعد التعريف بهم ونقدها بالقواعد الخطية. واقتصرنا على الرّاحلين الذين استوفوا براعاتهم، وبالتّالي لم نتعرّض لمدرسة المعاصرين رغم أحقّيتها وسهولة الحصول عليها. وكانت المدرسة الثانية هي الشامية، لدورها القديم والحديث في تطوير الخطّ وإبداع أقلامه، ثمّ المدرسة العراقية، وقد مثّلها في عصرنا محمّد هاشم الذي نبغ في الخط وكوّن مدرسة متواصلة بأجيال مبدعة. وخصّصنا الفصل الثاني للمدرسة العثمانية التركية، بعد

نبـذة تاريخيـة للاطّلاع عـلى خصـائص هذه الأقوام الـتي بلـغت بالخط عصره الذهـبي. وقدّمنا مسيرة إمامين هـما حمد الله الذي بدأ دوره من حيـث وصل إليه ياقوت بـإضافة أساليب فـنيّة، ثم الحافظ عـثمان الذي طـوّر خطّ النّسخ، فـغدا خط المصـاحف إلى يومنـا هذا. وكان راقم رائد التـكوينات الخطـية المركبة بالـثلث، ونعـرض رائعتـه التي صـعب تصويـرها وإن دلّت عـلى براعـته. ولعلّ المـهتمّين يلـتفتون إلى إنقـاذها من الزوال. وابتـكرت هذه المدرسة في فتـرة رائدة خطوطا أخرى كالديوان وجلـيّه، والرقعة التـي تبناهـا العرب والعـجم لخصـائصها الاخـتزالية. إنّ لـوحة سامي فـي تقديرنـا قمّة ما وصـل إليه فنّ الـتركيب، وكـانت من أسباب اختـيار هذا الموضوع. ومن أجـل كلّ ذلك خصّصنـا لها التحاليل الدقيقة بدراسة حروفها وكـلماتها منعزلة، لسبر اهتمام الخطـاط بهـا وعرضهـا خاليـة من الـشكل. ثـمّ عرضنـا الشـكل والحليات وحدها، فبدت كالنجوم تزيّن سماءها، وكان التوازن والتوافق شامـلا فضاءاتها كذلك، ولا شك أنّ الخـطاط قد قضى الشـهور وربّـما الـسنوات فـي بنـائهـا كما هـو معـروف عنـه في روائعه.

وكان الفـصل الثالث عـن مدرستنا المغـربية، صدّرناه بـتاريخ نشـأة الكـتابة فـي المغرب الـكبـير والأندلـس. وعرضنـا مسـحا

للرسائل الخطّية للوقوف على أساليبها وآدابها وكذلك ورّاقيها. وقدّمنا نماذج لأصناف الكتابات وخصائص أدواتها. وواجهتنا عقبة غياب القواعد والموازين الخطّية، مثل المعهودة في المشرقية. وافتقدنا اللوحات المغربية الجلية والموجودة، رُسمت رسما ليتحرّر الخطّاط في أحجام حروفها وسمكها. ولعلّ من أسباب الابتعاد عن التراكيب والتي تحمل غالبا نصوصا قرآنية حذر تحريف قراءتها بالتقديم والتأخير أو العجز عن فكّها. وأنشأت المدرسة خطّا من الثلث المشرقي وسمّته بالمشرقي، وأضفت عليه من أذواقها وكتبت به العناوين. ومن تونس قدمنا الخطاط محمد صالح الخمّاسي ولوحته. وكان له أثر بعيد في المغاربة بفنونه الخطّية. ومن المغرب عرضنا كرّاسا يمثّل خطا مرسوما بخطّ مشرقي وطابع مغربي، ودرسنا لوحة الشيخ الوزّاني التي كتبها بأسلوبه المتميّز، ومن الجزائر تحدّثنا عن الخطاط حسين الجزائري، التركي الأصل، وقد أقام سنوات في ربوعنا، وعرّفنا بالخطاط محمّد راسم المتأثر بالمدرسة العثمانية. ولّما كان للرسّام ناصر الدين ديني حظ وافر في الخطّ العربي وتمجيده في كتبه، سجّلنا فقرات منها وعرضنا نماذج من خطوطه، اعترافا بغيرته على الإسلام الذي اعتنقه وعلى فنونه الخطية. وإن الشهادة التي وصف بها الخط وتحاميه عنه

والتصدّي للذيـن يرومون استبداله ما عرفت له مثـيلا عند أهله، وقدمنا لوحات محمّد راسم. وهي مشـرقية بطبوع مغربية، ولم نعثر بعد عـلى تراكيب المقرىء والخطاط المزخرف والمسفّر الشيخ محـمّد السفـطي الذي عـمّ نفعه كـلّ إفريقـيا بمصـاحفه. وقدّمـنا نماذجها بعد اكتشاف دورها. أما الخـطاط السعدي حرار فاقتصرنا على سيرته ونموذج لخطّه، إذ لم نعثر له على تراكيب.

ولمّا كـان هدفنـا الوقوف عـلى إسـهام كلّ خـطّاط أو جيـل من الخطّـاطين في تـطوير الخـط، جمعنـا نصّا كـتبه الأئـمة بدايـة من ياقـوت في القـرن السابـع الهجري إلـى سامي فـي القرن الـرابع عشر، للاطلاّع على أذواق أولئك الخـطّاطين وروائعهم. وكانت المقـارنة الثـانية أيـضا لنـصّ واحد لتـقييـم تصمـيم كلّ خـطاط، استدلالا عـلى ثراء الخط ورحـابة مجالـه الإبداعي، وهم حـاجي نوري 1325 هـ، مـحمّـد نظـيف 1326، إسمـاعيل حـقي 1362، محـمّد نجم الـدين 1372، تعـليـق ماجـد زهدي 1380، محـمّد شريفي 1390، كامل البابا (1400 تعليق).

وكشـأن كلّ دارس تُصـادفه عقـبات وتلاقـيه صعـوبات منـها المحفـز ومنهـا المُثـبط، فقـد شكونـا خلـوّ مكتـباتنـا من المـصادر المتخـصّصة في فنّ الخط والمـوجود منها فـبدون تعليق. إنّ تـغيّر اصطلاحـات الخطّ وآدابه وتبدّل أسالـيبه ورسومه ونشـوء خطوط

وقـراءات أخرى ومـخالـفة الأمـثلـة الخطـية لـلنـصوص الـواردة استعـصى علينـا تتبّع أطوارهـا. فانتقـلنا إلى مظـانّها لعلّـنا ندرك معنى لفظ كان واضـحا في زمانه، فوصل إلينا مبهـما بالتحريف أو غامضا بالتصحيف. فقمنا بـرحلة إلى المملكة المغربية للاطّلاع عـلى ذخـائـر مخـطوطـاتـها وآثـار مـنشـآتـها ولـقاء أسـاتـذتـهـا وخطّـاطيهـا، وعدنا إلـى تركيـا حيـث مصادر الـلوحات ولـقاء المختـصّين، ومنـها زيارة إلـى دمشـق لذات الأهداف. وكـانت الرحلة الـتالية إلى الخضـراء التي تجمعنـا اليوم في رحابهـا، بحثا عن المصادر لإثراء البحث.

أمّا المدرسة المصرية فقد كانت لنا مهد الدراسة الفنيّة فترة ستّ سنوات خلت، كان لها الأثر البليغ في هذه الدراسة. إنّ زملائي الخطـاطين لعـلى درايـة بالجهـود المضنـية والأوقـات المبذولـة في تسطير النماذج الخطية على قواعـدها وموازينها وثقل مسؤوليتها والرّضى عنها لا يكتم.

واقع الخطّ وتطلّعاته

إنّ الآمال قد انتعشت لمستقبل الخط وفنّ اللوحات بالذات منذ الثمانـينات. فما إن رحل أستـاذنا حامد الآمدي حتـى قام مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافـة الإسلامية التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامـي بتـنظـيم أوّل مـسابـقة دولـية فـي فنّ الخـط كلّ ثـلاث

سنوات جمعت شتات الخطاطين وأبرزت كفاءاتهم المغمورة، واستردّ الخطّ مجده وبزغ نجمه من حيث أفل. وتجلّت النهضة الخطية الأصيلة في مهرجان بغداد العالمي للخط العربي، وتميّز بوفرة المشاركين وقدرتهم العالية الواعدة. وفي سنة 1990 أقامت «جمعية أنجاد» بالمغرب الشرقي والجمعية المغربية للخط مهرجان الخط المغربي الأوّل للخط العربي إحياء لهذا الخط العربي الأصيل، راجين انتظام أمثاله في البلدان المغاربية. وها هي تونس الشقيقة تقوم اليوم بدورها، والرجاء أن يكون الدور التالي في الجزائر بإذن الله.

وفي شهر أفريل من سنة 1997 أقام متحف طهران للفنّ المعاصر، وجمعية الخطاطين بإيران المهرجان الأوّل الخطي في العالم الإسلامي. إنّ العزائم المتوقّدة في سبيل الأهداف السّامية والمرعيّة بالتشجيع الموفور من الرسميين وغيرهم، هي التي كانت وراء نشأة وازدهار الفنّ الخط الأصيل.

أمّا المدرسة المغربية فقد انضمّت إلى الوحدة الخطّيّة الإسلامية العربية التي تبنّاها أهلها في كلّ مكان، ومنذ قرون والأجيال تشيّد محاسنها وتحافظ على أصالتها بالإيمان والجهد والتضحية وعلى الله قصد السبيل. والسّلام عليكم.